نُصْبان

نبيلة عزوزي - المغرب

«ستمسخين.. الله يستر!» قالت النسوة وهن يضربن صدورهن حين همست لهن بما رأيت.. ثم قلن: «ما كل يرى يقال!».. طردنني من مجالسهن وتطيرن بي.. فهل رأين ما رأيت وصمتن؟! لكنني لن أصمت، وليتطيرن بي كما شئن !

اصطحبت مرة أخرى صديقتي إلى نصب الولي الصالح، أشعلت شمعة، وأنا أرقبها في ذهول، ثم ألصقت ناصيتها بالنصب، وهي تتمتم بأدعية وقد أغمضت عينيها.. وقبل أن أسألها، بادرتني بقولها:

- نحن على أبواب الامتحان، وعلينا إهداء قربان للولي ولو شمعة..

فقاطعتها:

- بل سأدعو الله وأتوكل عليه.

هزت رأسها ورجتني:

- قولي له: يا سيدي إني أدعوك لتتوسط لي إلى الله!

- حين فسر لي أبي سورة الإخلاص، قال لي: إن الله واحد.. ولا أحد يشاركه في الألوهية.. إذن، إن الله يسمع دعاءنا بلا واسطة ! نظرت إلي نظرة شزراء، وقد انفجرت غضبا:

- هجرتك الصويحبات، وكثيرا ما نصحتني أمي بالابتعاد عنك لأنك تكفرين بكل ما آمن به آباؤنا.. أو تنكرين بركات«السيد»؟!..إنه يقضي الحاجات ويرد المصائب، ما من عانس أو عقيم أو مكروب توجه إليه بالقرابين والدعاء إلا قضى حاجته.. انظري إلى «المقدم» الذي ندب حياته لخدمته كيف أصبح غنيا ومهيبا؟!

فعقبت متهكمة:

- المقدم ؟! إني رأيته..

لكنها ابتعدت عني، وقد أغلقت أذنيها.

لا أحد يتجرأ على حرمة السيد أو المقدم، ولا أحد سواي نعت بالمسخ.. ورغم ذلك، فإني أشعر بالزهو والأصابع تشير إلي، لأني لم أقدس النصب، ولم أزك المقدم!

لكنني أريد من يسمعني ويصدقني.. هرولت إلى جدتي التي تتمايل مع سبحتها، ولا أدري إن كانت تسمعني أو سابحة مع أذكارها.. قلت لها وأنا أحدق في عينيها المطمئنتين: جريت يوما خلف عنزتي الشاردة، فرأيت المقدم يجمع القرابين أمام النصب، كان يدس النقود في جيبه، ويضع الديوك السوداء المذبوحة في كيس.. يقال: إن تلك الديوك غذاء الجن الذي يحرس النصب.. بينما يضع الشمع في كيس آخر يبيعه للبقال، ثم يشتريه الزوار للنصب في اليوم الموالي.. وامتطى حماره الأشهب، بصبص له كلبه، وراح يشتم النصب، ثم بال عليه. أيعقل - جدة - أن تبول الكلاب على وليّ يقضي الحاجات، ويمسخ كل من تجرأ على حرمته ؟!».

لم تطردني جدتي، ولم تقاطعني، بل شجعتني ابتسامتها أن أكمل حديثي، فقلت: «يقال إن الولي قد أغدق بركاته على المقدم، حين ذهب في قيلولة شديدة الحر إلى الوادي ليغسل رداء الولي «السيد»، فبهرته جنية الوادي، وأخذته إلى قصرها الفخم في قاع الوادي، ووهبته مالا وذهبا حتى صار غنيا!».

شعرت بسعادة عميقة وصدر جدتي يحتضنني.. داعبت سبحتها وأنا أطرق السمع لكلامها: يا صغيرتي، كل ما أذكره من طفولتي، أن مستعمرا فرنسيا احتل تلك الأرض بعد أن أذل أصحابها وشردهم وقتل كل من سولت له نفسه بالدفاع عن أرضه.. والأطلال التي تعشعش عليها اللقالق غير بعيد من النصب هي بقايا بيته!».

وقبل أن أنهض والسعادة تلفني، أجلستني على ركبتها، دغدغت أذني برفق وسألتني:«أصليت

صلاة الشكر حين حصلت على الرتبة الأولى في الامتحان؟!».

وحين أومأت بالإيجاب، قبلتني.. لكن أحدا لم يرني ليشهد أن جدتي قد صدقتني!

لا أدري لماذا سعى الناس في طلبي للاجتماع بهم أمام النصب، ولا أدري لم طفت كل هذه التفاصيل على سطح ذاكرتي بعد سنين طوال.. فقد يحاكمونني، وقد يظنون أني قد نضجت وعدلت عن موقفي في طفولتي من الولي والمقدم.. لكنني لن أحيد عن مبدئي، وليفعلوا ما شاؤوا..!

وجدتهم متجمهرين أمام النصب حول شاب أوربي.. رجوني أن أترجم حوارهم معه..

أخرج الشاب الأشقر ورقة من حقيبته الجلدية، وراح يقرأ :ابني العزيز، يجب أن تنفذ وصيتي.. سافر إلى مسقط رأسك.. هدم النصب، وأعد التابوت المدفون هناك إلى فرنسا، وادفنه بجوار قبري!».

وما أن أنهيت الترجمة، حتى ارتفعت الأصوات محتجة: مستحيل أن نضحي بولينا الصالح، سنمسخ، ستحل بنا الكوارث والمصائب، ستفقد قبيلتنا سمعتها وهيبتها بين القبائل!».

طأطأ المقدم رأسه، وقبضته ترتعش على عصاه، ثم جلس القرفصاء، وهو يعبث بشاربه، فتوجه إليه أحدهم: نراك صامتا، وأنت الخادم المخلص لولينا.. ألا تحضر زوجتك الجنية لتخلصنا من هذا المجنون!».

فصاح آخر وقد جحظت عيناه: «لو لم يكن ضيفا، وللضيف حرمته، لطردناه شر طردة،.. فلن ننسى ما كاله جده لآبائنا من صنوف الذل والعذاب!».

فنهره آخر: «لاتنسوا أن جده قد شيد لنا هذا الجسر، بعد أن كان النهر يعزل قبيلتنا عن المناطق الأخرى.. ولا تنسوا أنه علمنا أساليب الري الحديث..».

أشار عليهم كبيرهم بالصمت، وقال: «لنر ما في التابوت، فإن كان كنزا، اقتسمناه معه!».

وسال اللعاب على الكنز المكنون، وشردت العقول، وطغت الأحلام بالكنز والثراء وتحقيق الأمنيات، وصمتت النسوة اللائي تفنن في النواح، وشققن الجيوب، وتمرغن أمام النصب!

استدار نحوي الشاب الفرنسي وقال متأسفا: لم أكن أعلم أن هذا النصب يحظى بكل هذا الحب والتقدير».

ثم ما لبث أن نثر عليهم أوراقا نقدية.. فانهالت المعاول على النصب، وتسابقت النسوة إلى جمع ركامه للتبرك.. واشرأبت الأعناق حول الكنز.

نفض الشاب التراب عن التابوت الصغير، ضمه إليه بحرارة وقد ذرف الدمع، ثم تناول مفتاحا كان ملفوفا مع الوصية، وفتح الأقفال بعناية، أزاح الغطاء وهو يتصبب عرقا.

فرنت العيون وهمست الأفواه: «لقد كان كنزا ومسخ.. يا للبركة !».

وقف الشاب يلهث وهو يريهم ما بداخل التابوت، وقال:

«إنها جمجمة ذلك الوفي الذي أحبه أبي.. كان قد أتى به من فرنسا إلى المغرب.. حقا، لقد كان كلبا مميزا، يجمع بين الذكاء والوفاء والصيد والمرح.. إلا أنه كان يعاني غربة بين كلابكم الشرسة، التي كانت تطارده أينما وجدته..!».

وقبل أن يحمل التابوت إلى سيارته، طمأنهم:

«وفاء لذكراه ولحبكم الشديد له، سأشيد لكم نصبا آخرا أروع من السابق! ■